

بول ريكور (*)

ترجمة عز الدين الخطابي

الصيغة النموذجية للترجمة

1- الترجمة وعملية التواصل :

يضعنا الملشك الذي يطرحه فعل الترجمة أمام طريقتين، فإما أن نأخذ لفظ الترجمة بالمعنى الحصري لنقل رسالة شفوية من لغة إلى أخرى، وإما أن نأخذه بالمعنى الواسع كمرادف لتأويل كل مجموعة دالة داخل نفس الجماعة اللسانية. وللمقاربتين أهميتهما؛ فالمقاربة الأولى التي اختارها أنطوان بيرمان Antoine berman في مؤلفه « امتحان الغريب »⁽¹⁾ تأخذ بعين الاعتبار الواقع الغزير، المتضمن لتعددية ولتنوع اللغات. أما المقاربة الثانية التي اتبعها جورج شتاينر Ggeorge Steiner في مؤلفه « ما بعد بابل »⁽²⁾، فتنوجه مباشرة إلى الظاهرة في شموليتها والتي يلخصها الكاتب كما يلي : « أن نفهم معناه أن نترجم ».

قيمة، إذ إن هذه التعددية التي لا يمكن حصرها، ليست غير مجدية فحسب، ولكنها مضرّة أيضا. وبالفعل، فإذا كان ضمان التبادل بين الجماعات يتم عبر قوة اندماج كل لغة مأخوذة بشكل معزول، فإن التبادل مع من هم خارج الجماعة اللسانية، يصبح غير فعال عند هذا الحد، وذلك انطلاقا مما يدعوه شتاينر بـ « التبذير المشؤوم ».

لكن اللغز لا يتمثل فقط في التشويش على التواصل، وهو ما تدعوه أسطورة بابل التي ستحدث عنها بعد قليل بـ « التشتت » على المستوى الجغرافي و« البلبلة » على المستوى التواصلية؛ بل يتمثل كذلك في التناقض الحاصل بين هذا التشويش وبعض الوجوه ذات الصلة أيضا باللغة. فهناك أولا، الواقعة المهمة المتعلقة بكونية اللغة: « إذ إن كل الناس يتكلمون »، وهو معيار يميز للإنسانية إلى جانب الأداة والمؤسسة

ولقد اخترت الانطلاق من المقارنة الأولى التي تعطي الأهمية لعلاقة الأنا بالغريب، وهو ما يؤدي إلى الانفتاح على المقاربة الثانية، نتيجة الصعوبات والمفارقات التي تثيرها الترجمة من لغة إلى أخرى.

لننتقل إذن من تعددية وتنوع اللغات ولنسجل واقعة أولى وهي: أن الترجمة توجد، لأن الناس يتكلمون لغات مختلفة. وقد اصطلح على هذه الواقعة بـ « تعدد اللغات »، وهو العنوان الذي اختاره وليم فون همبولدت W. V. Humboldt لمؤلفه. غير أن هذه الواقعة هي بمثابة لغز في نفس الآن: فلماذا لا توجد لغة واحدة فقط؟ أو بالأحرى، لماذا توجد لغات كثيرة يبلغ عددها، كما يقول الإثنولوجيون، ما بين خمسة إلى ستة آلاف؟ هكذا، فإن المعيار الدارويني الخاص بالمنفعة والتكيف في إطار الصراع من أجل البقاء لم تعد له

(*) ألقى ريكور هذا العرض كدرس افتتاحي بكلية الثيولوجيا البروتستانتية بباريس في أكتوبر ١٩٩٨.

أساليب الترجمة الحاصلة بين اللغات؛ ونعني بذلك، القدرة التأملية للغة، كإمكانية متوفرة دوماً للحديث عن لغة أخرى مع الإبقاء على المسافة الفاصلة بينهما؛ وينتج عن ذلك، أننا نتعامل مع لغتنا الخاصة مثل تعاملنا مع أية لغة أخرى. وسأعود لتحليل الخاصية التأملية للغة فيما بعد، مكتفياً الآن بالحديث عن واقع الترجمة.

يتكلم الناس لغات مختلفة، لكن بإمكانهم تعلم لغات أخرى مغايرة للغتهم الأم. وقد أثارَت هذه الواقعة البسيطة تضارباً كبيراً في الآراء، اقتصر على خيار محرج وجب علينا إبرازه هنا؛ ويتحدد هذا الخيار المعطل لكل حركة paralytant كما يلي: إما أن تنوع اللغات، هو بمثابة تعبير عن خلط غير متجانس بشكل جذري، وبذلك تكون الترجمة مستحيلة نظرياً؛ أي أن اللغات ستكون قبلياً Apriori، غير قابلة لأن يترجم بعضها بعضاً؛ وإما أن الترجمة المأخوذة كواقعة، تفسر انطلاقاً من معنى مشترك، يسمح بفعل الترجمة؛ لكن وجب علينا هنا أن نختار بين أمرين: فإما أن نكشف هذا المعنى المشترك ونكون بذلك قد اقتفينا أثر اللغة الأصلية Originaire وإما أن نعيد بناء هذا المعنى منطقياً ونكون بذلك قد تتبعنا أثر اللغة الكونية Universelle؛ وسواء كانت أصلية أم كونية، فإن هذه اللغة المطلقة مطالبة بأن تظهر للعيان جداولها الصوتية والمعجمية والتركيبية والبلاغية. واسمحوا لي بأن أكرر هذا الخيار النظري: فإما أن يكون تنوع اللغات جذرياً، وبذلك تكون الترجمة مستحيلة بقوة الحق؛ وإما أن تكون الترجمة واقعاً قائماً، وبذلك يلزم تحديد إمكانية قيامها بحق، عبر بحث في الأصل أو من خلال إعادة بناء الشروط القبليّة للواقع الملاحظ.

والطقوس. فنحن نعني باللغة، استعمال العلامات التي ليست أشياء، لكنها تقوم مقام الأشياء، وهو ما يتجلى في تبادل العلامات أثناء التخاطب. ويبرز الدور الأساسي للغة المشتركة، ضمن إثبات الجماعة لهويتها، وهنا تبدو المفارقة، إذ نجد قدرة كونية، يتم التنكر لها من طرف الإنجازات المحلية ومن طرف الإجراءات المتشظية والمستتة والمبعثرة. وهو الأمر الذي سيؤدي إلى تضارب الآراء بخصوص الأسطورة أولاً، وبخصوص فلسفة اللغة المتسائلة حول أصل التشنت والبلبله ثانياً، وفي هذا الإطار، فإن أسطورة بابل، المختصرة جداً والضبابية في صيغتها الأدبية، تجعلنا نسرح إلى الوراثة بفكرنا باتجاه لغة فردوسية paradisiaque مزعومة ومفقودة، أكثر مما تقدم لنا دليلاً ينير طريقنا داخل هذه المتاهة. إن التشنت والبلبله يدركان إذن ككارثة لغوية لا يمكن معالجتها. وسأقترح بعد قليل، قراءة أكثر سماحة بخصوص الوضعية العادية للبشر. لكن أود قبل ذلك، الإشارة إلى وجود واقعة ثانية، وجب ألا تخفي عنا الواقعة الأولى، ويتعلق الأمر بتنوع اللغات، وبالْحَقِيقَة التي لا تقل أهمية، وهي أن الترجمة كانت قائمة دوماً. فقبل المترجمين المحترفين كان هناك الرحالة والتجار والسفراء والجواسيس، وهو ما كان يشكل عدداً كثيراً من مزدوجي اللغة Bilingues، ومن المتكلمين بعدة ألسن incommunicabilite المأسوف عليها، ونقصد بذلك، فعل الترجمة ذاته الذي يفترض أن تكون لدى كل متكلم القدرة على تعلم أو ممارسة لغات أخرى غير لغته؛ وتبدو هذه القدرة معززة لسماة أخرى مضمرة، تخص الممارسة اللسانية. إن هذه السماة تقربنا في آخر المطاف، من

(مصوتات، صوامت)، والتقطيع المفهومي المتحكم في الأنساق المعجمية (معاجم، موسوعات، إلخ)؛ والتقطيع التركيبي الذي يعتبر كأساس للمعارف النحوية. وتتوفر على أمثلة كثيرة في هذا الإطار: فإذا قلتم Bois بالفرنسية، فإنكم تجمعون هنا بين الأدوات من طبيعة خشبية وفكرة غابة صغيرة، لكن هذين المعنيين سيفترقان في لغة أخرى، حيث سيتم تجميعها داخل نسقين دلاليين مختلفين. وعلى المستوى النحوي: فإنه من السهل علينا إدراك كيف أن أنساق الأزمنة الفعلية (حاضر، ماضي، مستقبل)، تختلف من لغة إلى أخرى؛ إذ تجدون لغات لا يتم فيها تحديد وضع الزمان بل فقط الخاصية المنجزة أو غير المنجزة للفعل؛ وتجدون لغات بدون أزمنة فعلية، حيث يحدد الوضع داخل الزمان بواسطة ظروف معادلة للأمس أو للغد.. إلخ..؛ وإذا ما أضفتم إلى ذلك فكرة تبدو لي قابلة للدحض مع ذلك، ومفادها أن كل تقطيع لساني يفرض تصورا للعالم، كقولنا مثلا: إن الإغريق قد أسسوا فلسفات أنطولوجية لأنهم يتوفرون على فعل للكينونة *etre*، يستعمل في نفس الآن كرابطة وكتأكيد على الوجود، فإننا سنصل إلى أن مجموع العلاقات الإنسانية للمتخاطبين بلغة معينة، لن يتناسب مع مجموع العلاقات التي تسمح لإنسان متكلم بلغة أخرى أن يفهم ذاته غير فهمه لعلاقته بالعالم.

ويجب علينا أن نستنتج أن عدم التفاهم قائم بحق، وأن الترجمة مستحيلة نظريا، وأن الأشخاص المزدوجي اللغة هم مجرد فصامين *Schizophrenes*.

لنتقل إلى الصيغة الأخرى الآن: فما دامت الترجمة موجودة، فمن اللازم أن تكون ممكنة.

وأقترح عليكم استبدال هذا الخيار النظري المنحصر في قابلية الترجمة كنقيض لعدم قابليتها، وبتعويضه بخيار آخر، عملي هذه المرة، ومنبثق من ممارسة الترجمة ذاتها، وهو خيار الأمانة كمقابل للخيانة؛ ولو أننا نعترف بكون ممارسة الترجمة كعملية تظل متضمنة للمخاطرة أثناء سعيها الدائم نحو التنظير. وسنرى في الأخير، كيف أن صعوبات الترجمة التي تحصل بين اللغات، تثبت هذا الاعتراف المحرج. وقد شاركت مؤخرا في ندوة دولية حول التأويل واستمعت لعرض قدمه الفيلسوف التحليلي دونالد ديفيدسون Donald Davidson بعنوان «صعب وصلب (Hard) نظريا، سهل وميسور (Easy) عمليا»؛ وتلك أيضا هي أطروحتي المتعلقة بالترجمة في جانبها الداخلي والخارجي: من داخل وخارج اللغة، فهي غير مفهومة نظريا وقابلة للتطبيق عمليا، إلى الحد الذي يمكن معه الحديث عن الخيار بين الأمانة والخيانة.

وقبل سلوك طريق هذه الجدلية التطبيقية، جدلية الأمانة كمقابل للخيانة، أريد أن أعرض باختصار أسباب هذا المأزق النظري الذي يتصادم فيه ما هو غير قابل وما هو قابل للترجمة.

٢- الترجمة بين الإمكان والاستحالة :

إن أطروحة ما هو غير قابل للترجمة *Intraduisible*، هي بمثابة الاستنتاج الحتمي لنمط من الأبحاث الإثنو-لسانية (لي وورف وإدوار ساير E. Sapir, Lee Whorf)، التي أكدت على الخاصية غير التراكمية لمختلف التقطيعات التي تتركز عليها الأنساق اللسانية المتعددة، مثل التقطيع الصوتي والكلامي الذي يعتبر أساس الأنساق الفونولوجية

الزمن السحيق، بل صوب رموز قبلية. وقد خصص امبرتو إيكو Umberto Eco فصولا مفيدة بخصوص هذه المحاولات ضمن كتابه: « البحث عن اللغة الكاملة في الثقافة الأوربية ». فالأمر يتعلق، وكما يشير إلى ذلك الفيلسوف بيبكون Bacon باستبعاد عيوب اللغة. وسيجد ليبنتز Leibniz هذه الضرورة بفكرته حول الخاصية الكونية التي تهدف على أقل تقدير إلى تأليف معجم كوني للأفكار البسيطة، تتم تكملته بمجموع قواعد تؤلف بين ذرات الفكر الحقيقية هاته.

وإذا كان لزاما علينا أن نصل إلى مسألة الثقة التي تشكل منعطفا بالنسبة لتأملنا، ويجب علينا التساؤل عن سبب هذه المحاولة وعن ضرورة فشلها.

أكد أن هناك نتائج جزئية على مستوى النحو المسمى توليديا والمرتبطة بمدرسة تشومسكي Chocsky، لكن هناك فشل كلي من الناحية المعجمية والفونولوجية. فما السبب في ذلك؟ يرجع السبب إلى كون اللعنة لا تمس اللغات الطبيعية، بل وظائفها ذاتها. ولكي نبسط هذا النقاش التقني إلى أقصى حد، نقترح الوقوف على العقبتين التاليتين: فمن جهة، لا يوجد اتفاق حول ما يميز لغة كاملة انطلاقا من أفكار بدائية متألفة فيما بينها، إذ يفترض هذا الاتفاق ترادفا تاما بين اللغة والعالم، وهو ما يشكل إما تحصيل حاصل Toutologie، ما دام قد أعلن عن تقطيع مميز هو بمثابة صورة للعالم، وإما ادعاء يصعب إثباته في غياب جرد شمولي لكل اللغات المتكلمة. أما العقبة الثانية، وهي أكثر هولا من الأولى، فتتمثل في كون لا أحد باستطاعته أن يفسر كيف يمكن اشتقاق اللغات الطبيعية من اللغة الكاملة المزعومة، مع كل الغرائب التي سنذكرها بعد قليل؛ فالفاصل بين اللغة الكونية

وإذا كنا نعتبرها كذلك، فلأن وراء تعدد اللغات توجد بنيات مخفية، وقد تحمل هذه البنيات أثرا للغة أصلية مفقودة وجب اكتشافها، أو أنها تكمن داخل رموز قبلية وبنيات كونية، أو كما يقال، داخل بنيات متعالية، يلزم علينا إعادة بنائها.

إن الرواية الأولى التي تخص اللغة الأصلية، قد تم إقرارها من طرف مختلف المعارف الغنوصية Gnosés والقبالية Kabbale والتيارات الهرمسية Hermestismes، وقد انتهى بها الأمر إلى إنتاج بعض الفواكه السامة بخصوص الدفاع عن لغة آرية مزعومة تعتبر خصبة تاريخيا وتقابل اللغة العبرية المعروفة بعقمها.

وقد أدان أولندر Olander في كتابه « لغات الفردوس » ذي العنوان الفرعي المقلق: « آريون وساميون، زوج مناسب »، ما سماه بـ « الخدعة العالمة »، خدعة اللاسامية اللسانية. لكن، وإقرارا للحق، وجب القول بأن الحنين إلى اللغة الأصلية قد ساهم في بروز التأملات العميقة لفالتر بنيامين Walter Benjamin، صاحب مؤلف « مهمة المترجم »، حيث تنبئ « اللغة الكاملة » أو « اللغة الخالصة » - وهذه تعابير الكاتب - كأفق تنبؤي لفعل الترجمة ويتم بشكل سري، ضمان التوافق بين اللغات الخاصة عندما تصل إلى قمة الإبداعية الشعرية. ولسوء الحظ، فإن ممارسة الترجمة، لا تتلقى أي عون من هذا الحنين الذي سينقلب إلى انتظار أخروي Eschatologique، ولربما سيلزنا بعد قليل أن نعي أمنية الكمال، كي نتحمل بدون نشوة وبكل بساطة، « مسؤولية المترجم ». وتعتبر الرواية الأخرى أكثر عنادا، وهي رواية البحث عن الوحدة التي لا تروم الاتجاه صوب أصل قابع في

واللغة التجريبية، بين ما هو قبلي وما هو تاريخي، يبدو غير قابل للتجاوز. وهنا ستكون التأمّلات التي سنختتم بها تصورنا لعمل الترجمة داخل نفس اللغة الطبيعية، مفيدة جدا من أجل إبراز التعقيدات اللامتناهية لهاته اللغات التي تدفعنا في كل مرة إلى الاطلاع على وظيفة لغة ما، بما فيها لغتنا الخاصة.

تلك هي الحصيلة الموجزة للمعركة التي تتواجه فيها النزعة النسبية المرتكزة على العمل الميداني والقائلة باستحالة الترجمة، والنزعة الصورية المنبثقة من العمل المكتبي، والتي فشلت في تأسيس واقعة الترجمة على بنية الكونية مبرهن عليها. نعم، يجب علينا الاعتراف بهذه الحقيقة، وهي أن الوضع بين لغة وأخرى، هو وضع التشتت والبلبلية. ومع ذلك، فإن الترجمة ترتسم ضمن الابهتال الطويل الذي تردد فيه عبارة: «رغم كل شيء». إذ أنه بالرغم من الاقتتال الأخوي، نناضل من أجل أخوة كونية. وبالرغم من تنافر اللغات المحلية يوجد مزدوجو اللغة ومعدّو الألسنة والتراجم Interpretes، والمترجمون Traducteurs.

وإذن كيف يباشرون عملهم؟

أعلنت قبل قليل عن تغيير وجهتي، فقد قلت: لنترك الخيار النظري المتعلق بقضية الترجمة كمقابل لعدم قابليتها. ولنضع أنفسنا جميعا على سكة هذا الانقلاب، أود الرجوع إلى تأويل أسطورة بابل، وليس غرضي هو إثارة فكرة الكارثة اللسانية المسلطة على الإنسانية من طرف إله لم يرقه نجاح هذه الأخيرة. فبإمكاننا أيضا أن نقرأ هذه الأسطورة وكذلك كل الأساطير الأخرى المتعلقة بالبدايات، والتي تأخذ في

الحسبان أوضاع لا رجعة فيها، باعتبارها إقرارا بانفصال أصلي لا شك فيه. هكذا يمكننا أن نبدأ في مطلع «سفر التكوين» بانفصال العناصر الكونية الذي يسمح بانثاق النظام من السديم Chaos، وأن نستمر مع فقدان البراءة وطرده الإنسان من الجنة، هذا الطرد الذي شكل أيضا علامة على بلوغ سن الرشد والمسؤولية، كما يمكننا كذلك - وهذه المسألة تهمنا كثيرا بخصوص إعادة قراءة أسطورة بابل - أن نمر على جريمة قتل الأخ Fratricide، وهي جريمة قتل هايبل التي جعلت من واقع الأخوة ذاتها، مشروعا أخلاقيا وليس مجرد معطى طبيعي.

٢- أسطورة بابل وبلبلية الألسن :

وإذا ما تبينا هذا المستوى من القراءة الذي يساير شرح بول بوشان P. Beauchamp، فإن تشتت وبلبلية اللغات اللذين أعلنت عنهما أسطورة بابل، سيتوجان قصة هذا الانفصال وسيجعلانه في صميم ممارسة اللغة.

هذه هي حالتنا وهكذا نوجد مشتتين ومبلبلين، فما هو مآلنا؟ إن الترجمة هي المآل؛ فهناك ما بعد بابل كواقعة تم تحديدها عبر «مهمة المترجم»، وهو العنوان الذي سبق أن استعرناه من البحث الشهير لفالتر بنيامين.

ولتعزير هذه القراءة أود التذكير مع امبرتو إيكو، بأن رواية التكوين حول بابل، جاءت مباشرة بعد مقطعين وردت فيهما تعددية اللغات كمعطى واقعي لا لبس فيه [سفر التكوين XI، ٣١، ٢]، وسأتلو عليكم هذين المقطعين من ترجمة شوراكي الدقيقة:

«ها هم أبناء سام، حسب عشيرتهم ولسانهم وحسب أرضهم وشعبهم.»

فلا شيء الآن سيمنعهم من تحقيق ما ينوون فعله!
هيا! ننزل! ولنبلبل لسانهم، حتى لا يفهم الواحد
لغة قريبه.

ومن هنا شتتهم يهوه على وجه الأرض برمتها،
وتوقفوا بذلك عن بناء المدينة.

وإثر ذلك سماها بابل - ببلبة، فمن هنا اختلط لسان
الأرض برمتها،

ومن هنا شتتهم يهوه على كل الأرض.

وها هي ذي مآثرة سام البالغ من العمر مائة سنة

والذي أنجب أريخشاد، سنتين بعد الطوفان،

وبعد إنجاب أريخشاد، عاش سام خمس مائة
سنة وأنجب البنين والبنات^(٣).

ها قد سمعتم، فليس هناك أي احتجاج أو
تشكي أو اتهام « فمن هنا شتتهم يهوه على وجه
الأرض برمتها وتوقفوا عن البناء ». نعم، توقفوا
عن البناء! وهذه طريقة للقول بأن الأمر حدث
على هذا المنوال. أي نعم، على هذا المنوال، كما
كان يجلو لبنيامين أن يعبر عن ذلك، فانطلاقاً من
هذا الواقع المعيشي، أصبحنا مطالبين بالترجمة!

وللحديث بشكل أفضل عن مسؤولية
الترجمة، أريد أن أثير هنا، مع أنطوان بيرمان
صاحب كتاب « امتحان الغريب »، مسألة الرغبة
في الترجمة. فهذه الرغبة تتجاوز الإكراه والمنفعة.

أكد أن هناك إكراها ما: فنحن إذا ما أردنا
التجارة والسفر والتفاوض بل والتجسس،
وجب علينا أن نتوفر على رسل يتكلمون لغة
الآخرين. أما بخصوص المنفعة فهي واضحة:
فنحن إذا ما أردنا اقتصاد تعلم اللغات الأجنبية،
فإننا سنكتفي بوجود الترجمات. وعلى أية حال،

ها هي عشائر أبناء نوح، حسب نشاطهم
وشعبهم.

ومن هؤلاء تفرقت الشعوب على الأرض بعد
الطوفان».

يندرج هذان المقطعان ضمن أسلوب
الإحصاءات الذي يتجلى عبره فضول رؤية
حنونة. فالترجمة هي إذن بمثابة مسؤولية، لا
بمعنى الضرورة الملزمة بل بمعنى الشيء الذي
يجب القيام به، حتى يتمكن الفعل الإنساني من
الاستمرار ببساطة، حسب تعبير حنا آرندت
صديقة بنيامين، الوارد في مؤلفها: « الشرط
الإنساني ». بعد هذين المقطعين تأتي الحكاية
المعنونة بـ « أسطورة بابل »، والتي جاء فيها:

« هكذا هي الأرض برمتها، لسان واحد وكلام
وحيد

ومن هنا كان رحيلهم من الشرق، حيث وجدوا
قطعة من الأرض

بشنيار واستقروا بها.

وقال كل واحد نظيره: لنصنع الآجر

ولنشويه على النار. وهكذا أصبح الآجر حجارة

وأصبح القار إسمنتاً.

وقالوا، هيا، لنشيد مدينة وبرجا يصل رأسه إلى
عنان السماء،

ولنعط لأنفسنا اسماً حتى لا نشنت على وجه
الأرض برمتها.

ونزل يهوه لرؤية المدينة والبرج اللذين شيدهما بنوا
الإنسان.

وقال يهوه: أجل شعب واحد ولسان واحد
للجميع، ذلك ما بدأوا يفعلون!

النص الأول والثاني، بحيث يقال نفس الشيء هنا وهناك. لكن، وكما ورد في محاوره بارميندس لأفلاطون، فإنه لا يوجد إنسان ثالث بين فكرة الإنسان وأي إنسان فرد، ليكون سقراط مثلا، كذلك لا يوجد نص ثالث بين النص الأصلي ونص الوصول. وهنا تبرز المفارقة قبل المأزق: فهدف الترجمة الجيدة، هو تحقيق ترادف مزعوم، غير مؤسس على مطابقة للمعنى قابلة للبرهنة، إنه ترادف بدون تطابق. ولا يمكن لهذا الترادف إلا أن يكون مطلوبا، مخدوما ومزعوما. والأسلوب الوحيد الذي يمكن من خلاله نقد ترجمة ما - وذلك ما نستطيع القيام به دائما - يتمثل في اقتراح ترجمة أخرى، مزعومة وطموحة وأكثر جودة أو مختلفة. وهو ما يحدث على أية حال، في حقل المترجمين المحترفين.

أما بخصوص النصوص الكبرى لثقافتنا، فإننا نتغذى أساسا من الترجمات المعادة، والتي يتم تنقيحها باستمرار. وذلك هو شأن التوراة وهو ميروس وشكسبير وكل الكتاب الذين سبق ذكرهم وأيضا شأن الفلاسفة، من أفلاطون إلى نيتشه وهايدجر. وباعتبارنا مدججين بهاته الترجمات المعادة، فهل نحن مهيوون بشكل أفضل للخروج من مأزق الأمانة - الخيانة؟ كلا. فالمخاطرة المتولدة عن الرغبة في الترجمة، والتي تجعل من لقاء الغريب داخل لغته امتحانا، هي بمثابة وضعية لا تطاق. وقد اعتبر فرانز روزنفيك F. Rosenweig، هذا الامتحان كمفارقة، وهو الذي تحدث عنه صديقنا هانز كرسنوف أسكاني H. C. Askanie، « كشاهد على مشكلة الترجمة » [وهذا ما تسمح به ترجمة عنوان كتابه القيم، الصادر بتوبنغن Tubingen]، فأن نترجم معناه أن نستفيد من خدمات معلمين وهما: الغريب في

فهذه الوسيلة تمكنا من الاطلاع على المسرحيات المأساوية القديمة وعلى أفلاطون وشكسبير وسرفانتيس وبترايك ودانتي وجوته وشيلر وتولستوي ودوستويفسكي.

وإذن، فإن الإكراه والمنفعة قائمان! لكن هناك ما هو أكثر ثباتا وعمقا واحتجاجا: إنها الرغبة في الترجمة. فهذه الرغبة هي التي بعثت الحساس في المفكرين الألمان منذ جوته، هذا الكلاسيكي العظيم وفون همبولدت المذكور آنفا، مرورا بالرومانسيين أمثال نوفاليس والإخوة شليغل وشلاير ماخر [مترجم أفلاطون، وهو أمر لا يمكن تناسيه]، وصولا إلى هولدرلين مترجم المسرحيات المأساوية لسفوكليس وانتهاء لفالتر بنيامين وارث هولدرلين.

وراء هذه المجموعة الرائعة، يوجد لوثر مترجم العهد القديم، لوثر صاحب الإرادة في « جرمنة Germaniser » التوراة، التي ظلت أسيرة القراءة اللاتينية للقديس جيروم.

ما الذي كان ينتظره هؤلاء الشغوفون بالترجمة من رغبتهم تلك؟ لقد كانوا ينتظرون ما سباه أحدهم بتوسيع أفق لغتهم الخاصة، بل وما سباه الجميع بالتكوين Bildung، أي التشكيل والتهديب في نفس الوقت، وإذا ما صح التعبير، اكتشاف لغتهم في المقام الأول واكتشاف مواردها المنسية. يقول هولدرلين: « إن ما هو خاص، يجب أن يعلم بنفس القدر الذي يعلم به ما هو أجنبي ». لكن لماذا تؤد هذه الرغبة في الترجمة، ثمن السقوط في مأزق، هو مأزق الأمانة - الخيانة؟ إن السبب في ذلك يرجع إلى غياب معيار مطلق للترجمة الجيدة. فلنكتفي بتوفر مثل هذا المعيار، يجب علينا مقارنة نص الانطلاق ونص الوصول بنص ثالث، يكون حاملا لمعنى مماثل يفترض فيه التحرك ما بين

للضيافة المتشابهة معها: أو ليست الاعترافات والديانات هي بمثابة لغات غريبة بعضها عن البعض الآخر، بمعجمها ونحوها وبلاغتها وأسلوبيتها التي يجب تعلمها لكي نتمكن من فهمها؟ ألا تدعونا الضيافة القربانية إلى تحملها بنفس المخاطرة التي نتحمل بها الترجمة - الخيانة، وأيضا بنفس التخلي عن الترجمة الكاملة؟ سأتوقف عند هذه الماثلات الجزافية وعند هذه النقط الاستفهامية. ولا أريد اختتام هذا العرض، قبل الحديث عن الأسباب التي تدفعنا إلى عدم إهمال الشق الآخر لمشكلة الترجمة وأقصد بذلك، ولعلكم تتذكرون هذا الأمر، الترجمة داخل نفس الجماعة اللسانية؛ وأود أن أبين، ولو بإيجاز، بأن اشتغال نفس اللغة على ذاتها، هو الذي يظهر الأسباب العميقة التي بموجبها يستحيل تجاوز الفاصل بين لغة كاملة ذات كونية مزعومة، واللغات المسماة طبيعية أي غير الاصطناعية. وكما سبق أن أكدت، فليست عيوب اللغات الطبيعية هي التي يراد إقصاؤها، بل وظيفة هاته اللغات ذاتها، في غرابتها المدهشة. هكذا، فإن هذا التباعد سيتجلى عبر عمل الترجمة الداخلية بالضبط. وفي هذا الإطار، أراني متفقاً مع الإعلان الذي وجهه كتاب جورج شتاينر برمته، والذي اختار له كعنوان: « ما بعد بابل ».

٤- الترجمة والتاويل :

فبعد بابل « يرتبط الفهم بعملية الترجمة ». ولا يتعلق الأمر فقط بمجرد استبطان للعلاقة بالغريب، وفقاً للمثال الأفلاطوني الذي يعتبر بأن الفكر هو حوار للروح مع نفسها؛ بل إن الأمر يتعلق باكتشاف أصيل، يبرز الأساليب المألوفة لدى لغة حية ما: فهذه الأساليب لا تسمح لأية لغة كونية بالتوصل إلى إعادة بناء التنوع اللغوي اللامتناهي. إن الأمر يتعلق أيضاً بالاقتراب من

غرابته ثم القارئ ورغبته في الامتلاك. وقد سبق لشلايرماخر قبل ذلك أن وزع هذه المفارقة على العبارتين التاليتين: « جلب القارئ نحو المؤلف » و« جلب المؤلف نحو القارئ ». وسأجازف من جهتي بتطبيق العبارة الفرويدية على هذه الوضعية، بالمعنى الذي يتحدث فيه فرويد Freud عن عمل التذكر وعمل الحداد Deuil، فضلاً عن عمل الترجمة. فهذا العمل الأخير الذي تم التحكم فيه بعد مقاومات داخلية مصدرها الخوف إن لم نقل الحقد على الأجنبي، يدرك كتهديد موجه ضد هويتنا اللغوية الخاصة. وهو أيضاً عمل الحداد الذي تتجلى وظيفته في التخلي عن النموذج المثالي للترجمة الكاملة. ولم يعزز هذا النموذج المثالي الرغبة في الترجمة وأحياناً سعادة الترجمة فحسب، بل ساهم أيضاً في شقاء هولدرلين، الذي أنهكه طموح سبك الشعر الألماني والشعر اليوناني داخل شعر سام يلغى فيه اختلاف اللغات المحلية. ومن يدري، فلربما كان النموذج المثالي للترجمة الكاملة هو الذي يصون في آخر المطاف، الحنين إلى اللغة الأصلية أو إرادة التحكم في اللغة بواسطة اللغة الكونية. إن التخلي عن حلم الترجمة الكاملة يظل اعترافاً بالاختلاف الذي لا يمكن تجاوزه، بين ما هو خاص وما هو أجنبي. بقي علينا الحديث عن امتحان الغريب، وهنا أعود إلى عنوان هذه المداخلة وهو: الصيغة النموذجية للترجمة. ويبدو لي بالفعل أن الترجمة لا تطرح فقط مسألة العمل الذهني والنظري أو العملي، بل تطرح أيضاً مشكلة أخلاقية فجلب القارئ نحو المؤلف أو العكس، علماً بأن الأمر يتضمن مجازفة خدمة أو خيانة المعلمين معاً، معناه ممارسة ما يجلولي أن أسميه بـ « الضيافة اللسانية »؛ فهي التي تشكل النموذج بالنسبة للصيغ الأخرى

آخر. ويجب أن نكون كثيرين، إذا ما أردنا القيام بالتعريف وإعادة الصياغة والتفسير، والبحث عن قول نفس الشيء بطريقة أخرى.

لنتقدم خطوة أخرى باتجاه تلك الأسرار التي لم يكف شتاينر عن سبر وإعادة سبر أعوارها. فما هي الوسائل التي نستخدمها عندما نتكلم أو نوجه الكلام إلى شخص آخر؟ إننا نستعمل ثلاثة أنواع من الوحدات، هي: الكلمات، أي العلامات التي توجد بالمعجم، والعبارات التي لا تتوفر على معجم خاص بها (إذ لا أحد بإمكانه أن يحدد عدد العبارات التي قيلت أو ستقال في اللغة الفرنسية أو في أية لغة أخرى)؛ وأخيرا النصوص، وهي مقاطع من العبارات.

ويعتبر استعمال هذه الأنواع من الوحدات الثلاث التي خضعت إحداها للتدقيق من طرف دوسوسير De Saussure، والثانية من طرف بنفينيست Benveniste، وجاكوبسون Jakobson، والثالثة من طرف هرالد فيزيش Harald Weizich، ويوس Jaus، أصحاب نظرية تلقي النصوص، يعتبر هذا الاستعمال، كمصدر للابتعاد عن اللغة الكاملة المزعومة وكمصدر لسوء الفهم أثناء الاستعمال اليومي، وبالتالي كمناسبة لقيام التأويلات العديدة والمتنافسة.

وأريد الآن إضافة كلمتين إلى موضوع الكلمة: فكلماتنا تتوفر كما نرى ذلك في المعاجم على أكثر من معنى، ونسمي ذلك «تعدد المعاني» polysemie. هكذا، فإن المعنى يحدد كل مرة من خلال الاستعمال الذي يتمثل أساسا في انتقاء جزء من معنى الكلمة، يكون متلائما مع ما تبقى من العبارة، ويساهم معه في تشكيل وحدة المعنى المعبر عنه والمقدم من أجل التبادل. وفي كل مرة، يحدد السياق، كما يقال، المعنى الذي أخذته

أسرار اللغة الحية وتحليل ظاهرة سوء الفهم Malentendu، والالفهم Mecomprehension، المؤدية حسب شلاير ماخر، إلى التأويل الذي تريد الهيرمينوطيقا أن تجعل منه نظرية. فأسباب التباعد بين اللغة الكاملة واللغة الحية، هي بالضبط نفس أسباب اللاتفاهم. وأود الانطلاق من هذه الواقعة الضخمة المميزة لاستعمال لغتنا: فيإمكاننا دوما قول نفس الشيء بطريقة أخرى. وذلك ما نقوم به عندما نعرف كلمة بالاعتماد على كلمة أخرى من نفس المعجم وما نقوم به كل المعاجم. وفي إطار علمه السميوطيقي، يضع بيرس Peirce، هذه الظاهرة كأساس لتأمل اللغة في ذاتها. وهو ما نقوم به أيضا عندما نعيد صياغة حجة غير مفهومة. فنحن نقول بأننا نفسرها، أي أننا نبسط ثناياها. والحال، أن قول نفس الشيء بطريقة أخرى أو بصيغة أخرى Aetrement dit، هو من صميم عمل مترجم اللغة الأجنبية.

هكذا، نجد داخل جماعتنا اللسانية، نفس اللغز مقترنا بالشيء ذاته وبالمعنى ذاته وبالمعنى المائل الذي لا يوجد أصلا؛ وهو المعنى المفترض فيه أن يجعل الروائيتين المتعلقتين بنفس الحديث، متساويتين. لذلك نظل تائهين كما يقال؛ وغالبا ما نزكي سوء الفهم بواسطة تفسيراتنا.

وفي نفس الآن، يتم الربط بين الترجمة الداخلية كما سميتها والترجمة الخارجية، وأقصد بذلك، أن التفاهم داخل نفس الجماعة يتطلب متخاطبين على الأقل.

طبعاً، فإن الأمر يتعلق بأجانب وكنهم آخرون؛ وإن شئت قلت آخرين قريبين. هكذا فإن هوسرل Husserl، وأثناء حديثه عن معرفة الغير، سيدعو الآخر المألوف Der Fremde، أي الغريب؛ فهناك شيء ما غريب داخل كل

تغييرنا للحبكة باستمرار؛ لكن هناك أيضا أشكال نصية أخرى، لا نقوم فيها بالحكي، بل نقوم بالمحاجة مثلا، كما هو الشأن في مجال الأخلاق والقانون والسياسة. وهنا تتدخل البلاغة بوجوهها الأسلوبية وانزياحاتها Tropes، من استعارة وغيرها، وكل ألعاب اللغة التي تستعمل لخدمة استراتيجيات لا تحصى؛ نذكر من بينها الإغراء والترهيب، اللذين يتمان على حساب الانشغال النزيه بالإقناع. وينتج عن هذا، كل ما قيل في علم الترجمة Traductologie، حول العلاقات المعقدة بين اللغة والفكر وبين الروح والحرف؛ إضافة الى السؤال المطروح باستمرار: هل يجب علينا ترجمة المعنى أم ترجمة الكلمات؟ إن كل هذه الارتباكات المتعلقة بالترجمة من لغة إلى أخرى، تجد أصلها في تأمل اللغة الذاتي، وهو الأمر الذي دفع شتاينر إلى القول: « أن نفهم معناه أن نترجم ». ونصل هنا إلى أمر يتمسك به شتاينر كثيرا، وقد يعرض كل ما قيل إلى السقوط في اتجاه معاكس لامتحان الغريب. ذلك أن شتاينر يطيب له اكتشاف استعمالات الكلام، الذي يستهدف فيه شيء آخر غير الحقيقي والواقعي. إذ لا يستهدف فيه فقط الخطأ الجلي أي الكذب، وإن كان التكلم هو القدرة على الكذب والتستر والتزوير؛ بل هو أيضا، كلم ما يمكن ترتيبه في خانة ما هو غير واقعي، من قبيل: الممكن والمشروط والمتمنى والمفترض والخيالي. ويجب علينا الاعتراف بأن ما تسمح به استعمالات اللغة أمر لا يصدق: فنحن لا نكتفي فقط بقول نفس الشيء بطريقة مغايرة بل نقول شيئا مغايرا لما هو قائم. وقد سبق لأفلاطون أن أشار بهذا الصدد مثال السفسطائي، حيث لم يستطع إخفاء حيرته من هذا الأمر.

الكلمة ضمن هاته المرحلة أو تلك من الخطاب؛ وانطلاقا من ذلك، فإن الجدالات حول الكلمات يمكن ألا تنتهي؛ وهو ما نشهد به عبارة: « ماذا تقصدون بكلامكم؟ »؛ ويمكن للأشياء أن تتضح أو تزداد غموضا ضمن لعبة السؤال والجواب. إذ ليست هناك سياقات بارزة بل سياقات خفية، وما ندعوه بالإشارات ليست جميعها ذهنية، بل وجدانية، وليست جميعها عمومية، بل خاصة بوسط وطبقة ومجموعة بل وحتى بحلقة سرية. هكذا يوجد كل الهامش الذي تخفيه الرقابة والممنوعات؛ هامش اللامقول Non-dit، الذي تحترقه كل أوجه المستور.

وهذه الإحالة على السياق، نكون قد مررنا من الكلمة إلى العبارة. وتقدم هذه الوحدة الجديدة، التي تعتبر في الواقع أول وحدة ضمن الخطاب، ما دامت الكلمة تنتمي إلى وحدة العلامة التي لم تصبح خطابا بعد، مصادر جديدة للغموض تهتم أساسا بعلاقة المدلول Signifie، أي ما نقوله، بالسياق أي ما نتحدث عنه، وهو العالم في آخر المطاف. إذن أمامنا برنامج شاسع كما يقال؛ والحال، أننا لا نتوفر في غياب وصف شامل، إلا على وجهات نظر ومنظورات perspectives، ورؤى جزئية للعالم.

ولهذا السبب، فنحن لا نتوقف عن التعبير عن أفكارنا وتوضيحها بالكلمات والعبارات، وعن التفاهم مع الغير الذي لا يرى الأشياء من نفس زاوية رؤيتنا. وهنا يبرز دور النصوص؛ فتسلسل العبارات هذا، وكما تشير إليه الكلمة ذاتها، هو عبارة عن تنصيب ينسج الخطاب عبر مقاطع طويلة بهذا القدر أو ذاك⁽⁴⁾.

ويعتبر السرد مقطعا من بين هذه المقاطع، حيث تبرز أهميته بشكل خاص من كوننا ندرك بأنه باستطاعتنا سرد حكاية بطرق مختلفة مع

وحيدين مع كتبنا؟ فلتحظ الضيافة اللسانية إذن
بمرتبة الشرف.

غير أنني أرى أيضا الجانب الآخر، وهو
الجانب المتعلق باشتغال اللغة على ذاتها: أو ليس
هذا الاشتغال هو الذي يسمح لنا بإدراك
الصعوبات التي تعترض قيام ترجمة ممتازة؟ وعلى
افتراض أننا لم نتمكن من محاذاة « ما لا يمكن
قوله »، فهل كنا سنحيط بمعنى السر، هل كنا
سنقترب من السر الذي لا يقبل الترجمة؟ وهل
ستحافظ أفضل التبادلات بيننا في مجال الحب
والصداقة، على خاصية التكتم، أو لنقل على
خاصية السر والتكتم التي تحتفظ بالبعد داخل
القرب؟ أجل، هناك بلا ريب، مدخلان لمقاربة
مشكلة الترجمة.

=====

الهوامش :

1- A. Berman, « L'epreuve de l'etranger »,
paris, Gallimard,1995.

2- G. Steiner, APRES Babel, paris Albin
Michel, 1998.

٣- نشير هنا إلى أننا رجعنا إلى ترجمة أخرى للعهد القديم
لا تقل شهرة وذلك للمقارنة بين النصين، انظر:

4- Fird La sainte Bible, traduction Louis
Segond, London, 82, p. 7.

٥ - حاولنا جهد الإمكان أن نعبر بدقة عن مضمون هذه
العبرة التي لعب فيها بول ريكور على الكلمات الثلاث:
Texte, texture, tisser. (المترجم).

* * * *

لكن، ليس أمر السفسطائي، هو الأقدر على
إزعاج نظام كلامنا؛ فهذا الإزعاج يحصل أساسا
بسبب ميل اللغة إلى اللغز والحيلة والغموض
والسر، وباختصار إلى عدم التواصل.

وهنا يبرز ما أدعوه بتطرف شتاينر، الذي
سيقوده إلى وضع تقابل بين التأويل والتواصل،
بسبب كراهيته للثرثرة واللاستعمال المتبذل
والأداتي للغة. وهكذا، فإن معادلة: « أن نفهم
معناه أن نترجم »، سنتغلق من جديد على علاقة
الذات بذاتها، داخل السر المحتضن لما هو غير
قابل للترجمة والذي اعتقدنا إبعاده لفائدة الزوج:
أمانة - خيانة.

إننا نلاقي ما هو غير قابل للترجمة أثناء مسار
الرغبة القصية في الأمانة. لكن من الذي تستهدفه
هذه الأمانة وعلى أي شيء تقوم؟ إن الأمانة هي
قدرة اللغة على الاحتفاظ بالسر في تعارض مع
رغبتها في خيانة وإفشاء هذا السر. فهي إذن أمانة
تجاه الذات وليست أمانة تجاه الغير. ومن المؤكد
أن الشعر الرفيع لبول سيلان Paul Celan،
يحاذي ما هو غير قابل للترجمة، محاذاته لما لا يمكن
قوله Indicible، وما لا يمكن تسميته
Innomable، سواء داخل لغته الخاصة أو
ضمن التباعد الحاصل بين لغتين.

ما الخلاصة الناتجة عن هذه الانقلابات؟ إنني
أعترف أمامكم بحيرتي. أكيد أنني أميل إلى
تفضيل الدخول من باب الغريب. أو لم يساهم
التنوع الإنساني واللغز المزدوج لعدم قابلية
التواصل بين اللغات المحلية وعملية الترجمة، في
دفعنا إلى التحرك رغم كل شيء؟ ثم، هل كنا
سنحس بغرابة لغتنا الخاصة، لولا امتحان
الغريب؟ وأخيرا، ألن نشعر، في غياب هذا
الامتحان، بخطر الانغلاق داخل مرارة المونولوج

This document was created with Win2PDF available at <http://www.win2pdf.com>.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.
This page will not be added after purchasing Win2PDF.